

- المحاضرة الثامنة: توظيف التراث في السردية العربية

محتوى المحاضرة:

- التراث مصطلحا ومفهوما
- السرديات العربية وآليات استحضار التراث
- الرواية وتمظهرات استحضار التراث

- أهداف الدرس:

يتوقع من الطالب في نهاية هذا الدرس :

- فهم وتعريف مصطلح التراث.
- التعرف على آليات استحضار التراث.
- الاطلاع على بعض المنجزات الروائية العربية التي وظفت التراث.

- المراجع:

- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تح محمد نعيم العرقسوسي،
- حسين مروة، دراسات في ضوء المنهج الواقعي ،
- محمد عابد الجابري، المسألة الثقافية في الوطن العربي ،
- دفييد وورد الزمان والوجود والسرد (فلسفة بور ريكور)، تر. سعيد الغانمي.
- علي حرب أسئلة الحقيقة ورهانات الفكر - مقاربات نقدية -
- محمد رياض وتار، توظيف التراث في الرواية العربية،
- إميل حبيبي، الوقائع العربية في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل.
-

- المحاضرة الثامنة: توظيف التراث في السردية العربية

أ - التراث مصطلحا ومفهوما

ترجع لفظة (التراث) إلى مادة "وَرَثَ"، وتحيل بإجماع كل المعاجم إلى ما يكسبه الإنسان من نصيب مادي أو معنوي، يتركه السابق للاحق، يورد الفيروز آبادي في قاموسه المحيط اللفظة ويعقب:

تضمنت معنى وَرَثَ أباه منه بكسر الراء أي يرثه أبوه وأورثه أبوه وورثه جعله من ورثته والوارث الباقي بعد فناء الخلق، وفي الدعاء (أمتعني بسمعي وبصري واجعله الوارث مني)، أي أبقه معه حتى أموت⁽¹⁾.

ويلاحظ تداوليا أن لفظة التراث حديثا ومن خلال الدراسات اللغوية والفكرية والنقدية قد أخرجت من السياق المادي لتعوض بلفظة الميراث في هذا الجانب وتأخذ هي دلالة المعنوي خالصا وذهبت بذلك إلى تعريفي التراث بأنه: موروث فكري وثقافي تركه السلف للخلف، والذي «تراكم خلال الأزمنة من التقاليد والعادات والتجارب والخبرات وعلوم وفنون شعب من الشعوب، وهو جزء أساسي من قوامه الاجتماعي والخلقي، يوثق علاقته بالأجيال الغابرة التي عملت على تكوين هذا التراث وإغنائه»²، وبهذا أصبحت لفظة التراث قطبا اصطلاحيا شائعا في حقول معرفية شتى، منها الحقل الفكري والنقد الأدبي وعلم الاجتماع وعلم النفس وغيرها.

إن ما يميز التراث هو تجدد حضوره، وحركته الدائمة، وانتقاله المستمر من الماضي نحو الحاضر فالمستقبل، فالتراث من هذه الناحية هو كائن حي متحرك بصيرورة دائمة هي بصيرورة الحياة الواقعية التي ينبثق منها ويحيا فيها ومعها وهي بدورها تحيا فيه ومعها، ولكن بشكل آخر ربما كان شكلها الأرقى، وربما كان شكلها الراض لها، وربما كان تعبيرا عن صراعها هي مع نفسها³، وبذلك يكون التراث جزءا من الحياة، فهو يحضر بكيفية دائمة في كل التظاهرات السلوكية وكل العلاقات البشرية لأنه ببساطة مشكل هوي لا يمكن الاستغناء عنه حين الحديث عن الفرد أو الجماعة، ومن هنا يكتسي التراث أهمية بالغة ويصبح عند المبدع هدفا للاستزادة وأداة للتعبير في الوقت نفسه. وبالحديث عن التراث العربي وسؤال العودة إليه لقراءته عند مفكرينا أو توظيفه للتعبير به وعنه أدبيا عند مبدعينا، يمكن القول بأن ترسيخ معالم الهوية التي حاول الاستعمار بشكليه طمسها كان من أهم الأسباب التي دعت إلى العودة إليه، فالعودة إلى التراث في حياتنا المعاصرة هي جزء من عملية الدفاع عن الذات وهي عملية مشروعة وتشارك فيها جميع شعوب الأرض. وتبقى بعد ذلك كفيية التعامل مع التراث في

¹- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تح محمد نعيم العرقسوسي، دار الرسالة، بيروت، لبنان، ط.8، 2005، ج 1، مادة "وَرَثَ"، ص 177.

²- جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط 1، 1986، ص 63.

³- حسين مروة، دراسات في ضوء المنهج الواقعي مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت - لبنان، د.ط، ص.464.

العودة إليه وحدود توظيفه⁽⁴⁾، وبعد هذا السبب يأتي سبب آخر لا يقل أهمية محور بناء الذات لأن الارتفاع إلى مستوى الحياة المعاصرة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية كافة، من جملة ما يتطلب إعادة بناء الذات نفسها، وإعادة بناء الذات من إعادة بناء التراث⁽⁵⁾.

ب - السرديات العربية وآليات استحضار التراث

لقد سعت السردية العربية الحديثة والمعاصرة بوعي جديد وآليات مستحدثة إلى تحرير المعرفة التراثية، بإعادة النظر في نصوصها المختلفة، وتفكيك معطياتها الجاهزة القابلة دوماً لمستجدات القراءة. وبتأمل مجموع النصوص السردية الحديثة والمعاصرة، نجد أنها لم تتعامل مع التراث باعتباره منجزاً مكتملاً، بل اعتبرته وساطة مفتوحة النهاية غير تامة وغير مكتملة تتكون من شبكة من المنظورات المنقسمة بين توقع المستقبل، وتلقي الماضي، وتجربة الحاضر الحية⁽⁶⁾. هنا انطلقت من المنجزات السردية الحديثة والمعاصرة في تشرب النص القديم، ومن موقفها الواعي، أدركت هذه النصوص معنى العودة إلى التراث للنش فيه، واستنباط المناسب منه، لتوظيفه وقراءة الراهن من خلاله، وعرفت في الوقت نفسه جماليات هذه "العودة" والانفتاح على الزمن التاريخي للارتكاز عليه حاضراً والانطلاق منه نحو المستقبل.

إنّ الرجوع إلى المنجز التراثي هو فعل مرتد إلى الوراء يهدف إلى الكشف عن المسكوت عنه في النص القديم الذي لم ينظر إليه السابقون لأنه لم يستجب لمتطلبات زمنهم وسياقات كتاباتهم، وبذلك أخذت النصوص السردية الحديثة والمعاصرة دوراً جديداً محور الكشف عن هوامش التراث، وتوظيفها لأهمية ما تقدمه للنص اللاحق في موضوع من الموضوعات، وبذلك لا تتجاوز المادة التراثية كونها «مادة ثقافية يمكن تحويلها، أو رأس مال رمزي يمكن تحويلها، أو رأس مال رمزي يمكن صرفه أو

⁴- محمد عابد الجابري، المسألة الثقافية في الوطن العربي مركز الدراسات العربية، بيروت، لبنان، ط2، 1999، ص.252.

⁵- المرجع نفسه والصفحة نفسها.

⁶- دفييد وورد الزمان والوجود والسرد (فلسفة بور ريكور)، تر. سعيد الغانمي المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان،

ط1، 1999، ص.90.

استثماره، أو منجما معرفيا يصلح التنقيب فيه أو بنى وعقولة ينبغي تفكيكها أو حقلًا دلاليًا ثمة حاجة إلى أن يقلب ويعاد حرثه⁷، وهو ما ينتج لنا أدوارًا ريادية للنص السردي تتجاوز مجرد التوظيف.

ارتبطت المنجزات السردية في بدايات النهضة الأدبية العربية بإحياء القديم وبعث التراث، فقد كان للمقامات تأثير واضح في الروايات/ القصص المترجمة والمؤلفة من الناحيتين الشكلية والأسلوبية خفضت لغة الرواية القصة السجع، وكثرة المترادفات، والمفردات الصعبة، وكان لألف ليلة وليلة تأثير واضح في المضمون، فبرزت في النص الروائي معالم بطل الحكايات وخفضت الأحداث للمصادفات والعجائبي والخارق⁸، ومن ذلك ما نجده في نص "حدثنا عيسى بن هشام" للهويحي، "ليالي سطيح" لحافظ إبراهيم تخليص الإبريز في تلخيص باريز" للطهطاوي، "علم الدين" لعلي مبارك وغيرها من النصوص اللاحقة.

إن انطلاقة مثل هذه تؤكد مركزية التراث لدى المبدعون العرب في المرحلة التي تبلورت فيها الأجناس الأدبية وانتهت إلى الأشكال التي نعرفها اليوم، حيث انتقل المبدع من السعي إلى السكن في الماضي تجيّدًا له إلى مرحلة الاشتغال عليه بالهدم والبناء ليناسب ذاته الجديدة، وذلك وفقا لاستراتيجيات جديدة تستدعي التراث الأدبي والتاريخي والشعبي والأسطوري... المحلي والعالمي، لخلق طرائق تعبيرية جديدة تقدّم إلى جانب المادة المثقلة بأسئلة الكينونة والمطابقة والمغايرة والإيديولوجيا والتاريخ والمستقبل، صورًا جميلة يمكن الكشف عنها من خلال دراسة النصوص السردية تحت مسمى "التفاعل النصي".

يقوم التفاعل النصي على استحضار نصوص سابقة في النص اللاحق، والتفاعل معها وإنتاجها في ثوب جديد⁹. والنص السردي بوصفه كيانًا لغويًا فإنه يحمل في كثير من الأحيان شبكة من التفاعلات النصية، يسمدها المبدع من مخزونه الثقافي، فيستدعي الكثير من النصوص، ليوظفها في بنائه النصي عندما تتساق مع المضامين ليدعم بها الرؤى التي يريد التعبير عنها، وقد تغدو هذه النصوص بما تشكله

⁷- علي حرب أسئلة الحقيقة ورهانات الفكر - مقاربات نقدية وسخالية، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1994، ص 83.

⁸- محمد رياض وتار، توظيفي التراث في الرواية العربية، ص. 07.

⁹- عبد الرحيم حمدان، اللغة في رواية تجليات الروح للكاتب محمد نصار، مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية)، غزة، فلسطين،

. من تقاطعات نصية "ظاهرة توجه قراءة النص وتهمين عند الاقتضاء على تأويله أثناء هذه القراءة نفسها".⁽¹⁰⁾ إن التفاعل النصي أكسب النص السردى الحديث والمعاصر تعددا لغويا أثرى التجربة العربية حيث أكسبها تعددية من سياقات أخرى مع بقاءه متركزا في سياقه الخاص.⁽¹¹⁾

وبالعودة إلى النصوص السردية العربية الحديثة والمعاصرة يتبين أنها قد استعملت في بناء لغتها كل أنماط المستنسخات المرجعية والمقتبسات النصية التي تفاعلت مع النص الأصلي وأثرته، والتي نذكر من بينها: القرآن الكريم النصوص الدينية (الإنجيل التوراة النصوص الأدبية، الأمثال الأقوال المأثورة القصاصات السرود القديمة، الأساطير، الأخبار النصوص التاريخية ... وقد عمد المبدعون إلى استزاعها في نتاجاتهم مما أفضى إلى تولّد دلالات أثرت التجربة وعمّقتها وكشفت عن الرؤيا التي يصدر عنها النص السردى العربى المتأخر.

ولتضح فكرة توظيفي التراث في هذا المقام بشكل تطبيقي، نستخلص مثلا بسيطا استلهمه الروائي "إميل حبيبي" من التراث الأدبي العربي القديم بصيغة مباشرة وصریحة، بعد أن أشار إليه بقرينة مرجعية تحيل إلى انتمائه الخطابي، فكتب في الهامش حكاية أوردها "الجاحظ"، حكاية نصح بها "الكائن الفضائي" المتشائل / الخائن السليبي فقال: سمعت في بلاد فارس حكاية عن فأس ليس فيها عود ألقيت بين الشجر. فقال الشجر البعض ما ألقيت هذه ها هنا لخيرا! فقالت شجرة عادية: إن لم يدخل في أست هذه عود منكن فلا تخفنها.⁽¹²⁾

وبالنظر إلى السياق الذي أدرج فيه نص "الجاحظ" يتبين أن الروائي قد قرأه بما ينسجم مع موقفه ورؤيته، فجعلها تصدر عن ذات عالمة لجأ إليها المتشائل فنصحته بالعودة إلى المدينة الأم حفيا والاستقرار بها، مستشرفة من خلالها ما سيلحق أهل "عكا" إن بقي المتشائل بينهم وهو الذي سيكون الخائن لوطنه.

¹⁰-حميد الحمداني، القراءة وتوليد الدلالة، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء - المغرب، ط.2، 2007، ص 27.

¹¹-عبد الرحيم حمدان، اللغة في رواية تجليات الروح للكاتب محمد نصار، ص 143.

¹²-إميل حبيبي، الوقائع الغربية في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل، دار ابن خلدون، بيروت، ط.2، 1974، ص

لقد استعاض الفضائي عن التصريح بالتلميح، فحكى القصة للمتشائل ناصحاً، فجعله شجرة الأشجار مع ما يحمله مدلول الشجرة من رمزية للثبات والتجذر في المكان إشارة منه إلى أنه لن يكون يوماً إلا فلسطينياً، وإلى أن أسكن الإست فسيكون حتماً وبالاً على أهله.

تفاعل نص "حبيبي" مع حكاية الجاحظ وهي الحكاية التي استمدتها الروائي من زمن بعيد ومن نص عتيق، ووظفها في سياق نصي نابع عن أزمة فلسطينية حاضرة، إشارة منه إلى أن فعل الخيانة فعل في الزمن بوجوه متعددة ونتيجة واحدة، فجاء النسج فنياً يعبر عن أصالة الرؤيا وبلاغة لتوظفي.

ولأن المتشائل وهو الشخصية الخائنة في الأراضي الفلسطينية المحتلة لمي عمل بما نُصح به فقد وقع المستشرف الذي عبر عنه الروائي بـ"تراثي"، آخر من قصة مدينة النحاس المسحورة التي وردت في كتاب ألف ليلة وليلة، يقول المتشائل وهو يطوف في قرية من قرى "عكا" التي وشى بأهلها: «فرحت أمشي مذهولاً أتصورني الأمير موسى وقد دخل مدينة النحاس المسحورة، فإذا (لا حس فيها ولا أنيس، يصفر البوم في جهاتها، ويحوم الطير في عرضاتها وينعق الغراب في نواحيها وشوارعها ويبيكي على من كان فيها».⁽¹³⁾

¹³-إميل حبيبي الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحاس المتشائل، ص 131.